

أسلوب التعليل القرآني وبعض آثاره التعليمية

The Principles of Qur'anic Argumentation and Its Educational Effects

Prinsip Argumentasi Al-Quran dan Kesan Pendidikannya

رضوان جمال الأطرش*، ونجوى نايف شكوكاني**

الملخص

هدف هذا البحث إبراز إمكانية التأثير العملي بأسلوب التعليل في القرآن الكريم، ومحاولة البحث في تطبيقاته في واقع العملية التعليمية من العالم والمتعلم، بحيث لم يقتصر على الدراسة اللغوية أو الأصولية النظرية؛ وخصوصاً بعد التعريف بهذا الأسلوب وأدواته وأهميته وبيان اللوازم الخاصة للعالم والمتعلم للتأثر به، وقد تم ذلك من خلال استخدام المنهج الاستقرائي بتتبع أعمال العلماء في ذلك وتم رصد أقوال المفسرين فيما يتعلق بالأساليب البيانية وآيات التعليل ووجوه الإعجاز القرآني، ومن ثم استخدم المنهج التحليلي لإثبات ذلك الأثر وإثبات وجود إشارات وأدلة على مظاهر التأثير؛ واستنتاج حقيقة إمكانية استمرارية البحث في كل أدوات وآيات ومواضيع ذلك الأسلوب بنفس الطريقة التي تم طرحها، مما يثري هذا المجال،

* أستاذ مشارك بقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية- ماليزيا.

** طالبة دكتوراه في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية- ماليزيا.

ويفتح العقول ويدفعها للنظر والتدبر والبحث في آي القرآن، وفي كل المناحي، منطلقاً من فكر التجديد، والإفادة من مستجدات العصر وعلومه ضمن ضوابط العقيدة الغراء والشرع الحنيف.

الكلمات المفتاحية: أسلوب التعليل، أدوات أسلوب التعليل، التدبر، التعليم التقليدي، أثر.

Abstract

This study intends to highlight the possible practical impact of the principles of argumentation found in the Qur'an. The study attempts to apply the principles on the actual education process of the scholars and students without limiting it to linguistic studies or theoretical principles. This was done after introducing the principles of reasoning, its tools, its importance, and disclosing the special requirements for the scholars and students in order to be influenced by the latter principles. The work used inductive method to track the works of the scholars on the subject and observe the opinions of the Qur'an-commentators in relation to principles of explanation, verses of argument, and aspects of Qur'anic Inimitability. Analytical method was used to establish the impacts of the Qur'anic arguments; to prove the presence of signs and evidences for the manifestation of the impacts; and to make the continuity of this research possible in all the tools, verses and topics related to the principles of Qur'anic argument. Among those things that enrich this work is that it opens the minds, and pushes it to ponder and study the verses of the Qur'an. For every direction it becomes the starting point for the innovative thinking, and benefit for the new age and its sciences while maintaining the harmony with the principles of creed and the true *Shari'ah*.

Keywords: Principles of Argumentation, Tools of Argumentation Principles, Thinking, Traditional Education, Effect.

Abstrak

Kajian ini bertujuan untuk menyerlahkan impak praktikal prinsip argumentasi yang boleh ditemui di dalam al-Quran. Kajian ini juga cuba untuk mengaplikasikan prinsip-prinsip proses pendidikan ahli ulama dan pelajar tanpa menghadkannya kepada linguistik atau prinsip prinsip teori. Ianya dibuat setelah mengenali prinsip-prinsip pemikiran, alatnya, kepentingannya dan mendedahkan keperluan khas para ulama dan pelajar supaya mereka dipengaruhi. Kajian ini menggunakan kaedah induktif bagi mengesan kerja-kerja para ulama dan memerhatikan pendapat para pengulas al-Quran yang berkaitan dengan prinsip-prinsip penjelasan, ayat-ayat argumentasi, dan dari aspek ketulunan al-Quran. Kaedah analitikal digunakan untuk mendirikan impak argumentasi al-Quran; untuk membuktikan kehadiran tanda dan manifestasi impak; dan mengizinkan penyambungan kajian ini dalam semua alat, ayat dan topik berkaitan

dengan prinsip argumentasi al-Quran. Yang paling membawa manfaat kepada kajian ini adalah dari aspek yang ia membuka dan mengarahkan minda untuk merenungkan dan mengaji ayat-ayat al-Quran. Bagi semua, ia menjadi titik permulaan bagi pemikiran inovatif dan membawa manfaat kepada zaman depan sambil mengekalkan prinsip kepercayaan dan *Shari'ah*.

Kata Kunci: Prinsip Argumentasi, Alat Prinsip Argumentasi, Pemikiran, Pendidikan Tradisional, Kesan.

المقدمة

مرت الأمة الإسلامية ولا تزال في أزمة تعليمية نخر فيها الوهن والضعف، خاصة في جانب الجهاز التعليمي، والذي لا يمكن الإصلاح فيه إلا بمعالجة المحاور الرئيسة في العملية التعليمية لإنجاز تلك المهمة أي العالم، والمتعلم؛ وذلك ضمن هدي القرآن الكريم وبمنهجية تأثيرية تناسب توجهات العصر العلمية والارتقاءية.

ومع أن أسلوب التعليل في القرآن الكريم كان قد تناوله كثير من العلماء والدارسين قديماً وحديثاً، إلا أن تلك الدراسات لم تبرز أثر ذلك الأسلوب على العالم والمتعلم. لذلك جاءت هذه الدراسة للكشف عن لوازم التأثير بأسلوب التعليل القرآني ومن ثم استنتاج تلك الآثار في حياة العالم والمتعلم، لتسهم في نجاح العملية التعليمية، ونجاحهما في كل مناحي الحياة.

ومن نعم الله تعالى على خلقه، ذلك الكتاب المبين، المعجز بنظمه، والذي غاص فيه المتفكرون، وفي أساليبه حار النحويون، ولأحكامه سبر الأصوليون، وفي التوازن في دعوته نادى الدعاة إلى الله لإنقاذ الناس أجمعين.

والمتدبر لأي القرآن الكريم يلمس فيه العناية الكبيرة بأسلوب التعليل، والشمول في موضوعاته والتنوع في أدواته، التي وجهنا الله ﷻ إليه أثناء عرضه للسنن الكونية، والتشريعات والأخلاق، لهذا يُقبل عليه المسلم، اعتقاداً وفهماً وتمحيصاً ليتخذ منهجاً

وسلوكاً، متأثراً بهذا الأسلوب من كثرة عرضه وتعلقه بكل المواضيع والسنن الماثورة في القرآن الكريم.

وقد قام العلماء سواءً منهم القدامى أو المعاصرين، بتناول هذا الموضوع بطرق مختلفة وجوانب عدة؛ بطرق فلسفية، أو أصولية، أو لغوية، أو من خلال التفسير القرآني لمعرفة المعاني، والأحكام، والدروس، والمواعظ، والحكم. وسيظهر من كل ذلك التنوع في أدوات التعليل، والفوائد من هذا الأسلوب من خلال أقوال العلماء وعرضهم لآياته. والسؤال المطروح هنا هل يفتقد المسلم الأساس الذي ينطلق منه لتجدير فكرة السؤال والتعليل للتفكير، والاستنتاج، أو ليبنى عليه في التعلم والتعليم والبحث أو حتى للعمل في الحياة؟

ستوضح الإجابة بإذن الله تعالى عن السؤال المطروح، خلال التركيز على تتبع آيات القرآن الكريم في استخدام أسلوب التعليل ضمن الأساليب البيانية، وأثناء تناوله مواضيع مختلفة، وبيان أدواته مع التمثيل عليها من أقوال المفسرين والنحويين. ومن خلال هذا البحث ستظهر آفاقاً تقوم على التوجيه الفكري والتطبيقي للعالم والمتعلم، للإقبال على هذا الأسلوب دراسةً وتطبيقاً. وبذا يمكن تأكيد الخلاصة بأنه من يتبغي اتخاذ منهج الله وشرعه نهجاً لحياته فسيرى آثاره في التعلم والتعليم.

أسلوب التعليل القرآني: مفهومه، أهميته وأدواته

مفهومه:

الأسلوب لغةً: الأسلوب مأخوذةٌ من الفعل سلب، ويقال للسطر من النخيل أسلوب. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. وهو الطريق، والمذهب، ويجمع أساليب، والأسلوب بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه¹.
والأسلوب اصطلاحاً عند الأدباء: فهو "طريقة يستخدمها الكاتب ليبيّن رأيه أو يعبر عن موقفه بألفاظٍ مؤلّفةٍ على صورةٍ تكون أقرب لنيل الغرض المقصود في الكلام"².
من ذلك يلاحظ دخول المعنى اللغوي لأصل الكلمة في المعنى الإصطلاحي، فالسطر في النخل هو طريق وهو أسلوب لأنه يمتد وظاهر وله وجهته، وأخذ للمعنى الاصطلاحي أي طريقة تستخدم ولها وجهة محددة ظاهرة، وفيها أيضاً فن؛ لأن هذه الطريقة هي لتحقيق غرضٍ ما وذلك لن يتحقق إلا بفنٍ يناسبه.
التعليل لغةً: فقد جاء من العُلِّ والعِلل، يقال عللٌ بعد نحل. والتعليل سقيٌّ بعد سقي وجني الثمرة مرة بعد أخرى³. والعلة في اللغة: سبب الشيء⁴.
التعليل اصطلاحاً كما عرّفه الإمام الجرجاني هو: "تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر"⁵، وعرّفه تمام حسّان: بأنه "بيان العلة أياً كانت صورة البيان"⁶.

¹ انظر: جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ)، ج1، ص471-473.

² محمد التونجي، معجم علوم العربية، (بيروت، دار الجيل، ط1، 1424 هـ/2003م)، ص42.

³ انظر: المرجع نفسه، ص42، وص365.

⁴ انظر: يعقوب أميل بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، (بيروت: دارالكتب العلمية، ط2، 1420هـ/2000م)، ص452.

⁵ الجرجاني علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، تحقيق: وضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1)، 1403هـ/1983م، ص16.

⁶ تمام حسّان، البيان في روائع القرآن، (القاهرة: عالم الكتب، ط2، 1420هـ/2000م)، ص161.

يلاحظ أن المعنى اللغوي معاودة الشرب والسقي، أو المعاودة لجني الثمار دخل في المعنى الاصطلاحي وفي كل معاودة. فالمعنى الإصطلاحي فيه المعاودة وإدامة النظر وتكراره والرجوع حتى يتبين السبب أو العلة، وبغير ذلك لا يتحقق المطلوب.

مفهوم أسلوب التعليل:

أما أسلوب التعليل فيمكن القول مما سبق أنه: الطريقة الفنية الخاصة التي تسلك لبيان العلة أو السبب لأمر ما.

وقد تبيّن من خلال البحث وجود كلامٍ كثيرٍ حول الأسلوب؛ ولو عرضنا للتفسيرات الحديثة للغربيين والعرب نرى أنه لا يزال الغموض يكتنف مفهوم الأسلوب⁷. لكن ابن خلدون بسط الكلام في ذلك بقوله: "إن الأسلوب قالبٌ تنصبُّ فيه التراكيب اللغوية، وبهذا يتميز عن تلك التراكيب اللغوية، وعن البلاغة والبيان وعن العروض. فالتراكيب اللغوية هي مادة الأسلوب، وعلمها البلاغة والعروض يدرسان خصائص هذه التراكيب، غير أن الأسلوب شيءٌ أبعد من هذا كله؛ إنه طريقة صياغة الكلام وعملية هندسة القوالب التي يُصبُّ فيها الكلام"⁸.

والأساليب البيانية هي الجزء الرئيس في تحقيق النظم القرآني⁹ الذي به تمام إعجازه¹⁰. وأسلوب التعليل هو واحدٌ من تلك الأساليب التي يطول البحث بتعريفها وأمثلتها؛ لكثرتها وتشعبها¹¹ لكن يكفي هنا عن أسلوبٍ واحدٍ وهو الاستعارة¹²؛ ولها عشرات

⁷ انظر: علي ابو ملحم، فن الأسلوب الأدبي، (بيروت: المكتبة العصرية، 1968 م)، ص5-10.

⁸ انظر: عبد الرحمن بن محمد الحصرمي بن خلدون، المقدمة، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت)، ص11.

⁹ معنى النظم اصطلاحاً: "تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل"، الجرجاني، معجم التعريفات، ص303.

¹⁰ معنى الإعجاز القرآني اصطلاحاً: "الإعجاز أن يؤدّي المعنى بطريقٍ هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق". الجرجاني، معجم التعريفات، باب الألف، (ا ع غ ف)، ص30.

¹¹ ومنها ما حصرها الرماني 384هـ، وقصرها في عشرة أقسام بقوله: "البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمن، والمبالغة، وحسن البيان". علي بن عيسى بن علي

الأصناف¹³ اختلف العلماء فيها، حصر الإمام الرازي الوارد منها في القرآن الكريم بستة أصناف¹⁴، منها: استعارة المحسوس بالمحسوس، ومثاله: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مریم:4]، قال الرازي: "فالمستعار منه النار، والمستعار له الشيب، والجامع هو الانبساط، ولكنه في النار أقوى"¹⁵. فالتعليل هنا بأسلوب الاستعارة؛ أي أن سيدنا زكريا قد ذكر علة تعجبه من أن يكون له غلام؛ فقد وهن عظمه وشاب رأسه، وذكر تلك العلة بأسلوب الاستعارة وبأداة التعليل (إن) من باب تأكيد عجزه عن الإنجاب. وفائدة هذا الأسلوب؛ أنه "يكون أبلغ وأظهر وأعلى في تأثير القوة"¹⁶، ومعنى ذلك أنه يكون أفهم للمخاطب؛ فهي محسوسة مشاهدة من واقعه وليست معنوية يصعب تصورها، ولذلك أكثر منها القرآن في التعليل.

أهمية أسلوب التعليل في القرآن الكريم

بن عبدالله الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، (مصر: دار المعارف، ط3، 1976م) ص76.

¹² تعريف الاستعارة اصطلاحاً: "تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه لأجل المبالغة في التشبيه". فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق ودراسة: بكري شيخ أمين، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1985م)، ص232.

¹³ ذكر أحمد مطلوب في معجمه حوالي ثمانٍ وثلاثين صنفاً منها: الاستعارة الاحتمالية، والأصلية، وبالكناية، والتبعية، والتجريدية، والتحقيقية، والتخييلية، والترشيحية، والتصريحية التمثيلية التي سماها القزويني المجاز المركب". انظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، (العراق: المجمع العلمي العراقي، د.ط، 1407هـ/1987م)، ج1، ص143-174.

¹⁴ وهي: استعارة اسم المحسوس للمحسوس بسبب المشاركة في وصف محسوس، واستعارة المحسوس للمحسوس لشبه عقلي، واستعارة المحسوس للمعقول، استعارة المعقول للمعقول، استعارة المعقول للمحسوس، والاستعارة التخيلية.

الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص263.

¹⁵ المرجع نفسه، ص263.

¹⁶ الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص86.

قد كان لأساليب القرآن البيانية¹⁷ الدور الرئيس في إثارة التفكير للقارئ والسماع، وأولى الناس بتلك الإثارة العالم والمتعلم. وعند استعراض علوم اللغة والبيان المستنبطة من القرآن الكريم، تبيّنت جهود المسلمين الأوائل؛ حيث قاموا بدراساتها وتحليلها ومتابعتها، والتأثر بها. حتى أضحت لهم منهجاً في حياتهم، وفي دراستهم وتدريسهم. ويوضح ابن خلدون في مقدمته تلك الوظيفة للأساليب في معرض حديثه عن علم البيان ما مفاده: "واعلم ثمرة هذا الفن إنما هي فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها"¹⁸.

وكذلك أسلوب التعليل في القرآن الكريم سيكشف عن الغاية من الآية باختيار أداة تعليل مناسبة، وبذلك يمكن فهم الإعجاز القرآني الذي يؤدي الغاية التي وُجد من أجلها.

ومع تدقيق النظر في مقاصد القرآن الكريم من إرساله للبشرية يلاحظ أن أسلوب التعليل المنتهج في القرآن له مجالان من الأهداف: المباشرة وغير المباشرة؛ فمن الأهداف المباشرة؛ أن فيه فهم المعنى المراد من الآيات، وإبراز الإعجاز القرآني البديع، كما أنه الطريق الأسهل لإبانة المقصود. أما الأهداف غير المباشرة؛ فإن المسلم يطبقه بطريقة غير مباشرة في كل مجالات حياته وتواجده وتخصصه، خاصةً من المعلم في شرحه والمتعلم في فهمه ودراسته، فتصبح حياة المسلم قائمة على نظرة علمية واعية، لا ترضى بشيء ولا تؤمن به إلا بعد معرفة علته وسببه، وبذلك فإن هذه الشخصية الإيمانية العلمية الواعية ترفض التقليد الأعمى الذي ليس عليه دليل. كما أنها ترفض العقيدة القائمة على الظن وتنبذ

¹⁷ الأسلوب البياني هو: إحدى الأساليب البلاغية الناشئة عن مجموعة من الصور البلاغية، والمحتينات البديعية في الكلام. والتي بدورها تندرج في العربية تحت علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع. انظر: مجدي وهبه، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984م)، ص25.

¹⁸ ابن خلدون، المقدمة، ص552.

كل ذلك من حياتها. كما أن هذا الأسلوب يؤسس لمنهج إعمال العقل الذي دعا إليه القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته.

أدوات أسلوب التعليل:

يكون التعليل في القرآن الكريم بالأدوات، أو بالاسم، أو بالمفعول به، وقد يُفهم التعليل من بعض الجمل والألفاظ في سياق الكلام، كجملة صلة الموصول، أو من سياق الكلام، وقد ترد في معرض النص ألفاظ تبين العلة فيكون ذكر العلة شرحاً وتفصيلاً لها، مثال؛ لأجل، من أجل، وما هو بنفس المعنى، وقد يكون مجازياً وهو ما يسميه البلاغيون حسن التعليل؛ إذا كانت العلة المدعاة للمعلول ليست حقيقية وليست في الواقع. والأدوات يقصد بها¹⁹: الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، ومعرفة ذلك يكون من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها²⁰. وحروف التعليل التي وردت في القرآن الكريم هي: اللام، كي، الباء، الفاء، من، لعل، في، عن، حتى، على، الكاف، إن، والتعليل بما يحتمل الحرفية والإسمية كإذ²¹.

¹⁹ أحمد خضير عباس، أسلوب التعليل في اللغة العربية، (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الآداب، بغداد: كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1999م). وانظر: يونس عبد مرزوك الجنابي، أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن الكريم، (بغداد: كلية الآداب، جامعة بغداد، 1424هـ/2003م).

²⁰ انظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م)، ج2، ص166.

²¹ انظر: سعيد بن محمد بن عبد الله القرني، التعليل في القرآن الكريم دراسة نحوية، (بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في النحو والصرف، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع اللغة والنحو، إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى إبراهيم علي عبد الله، 1421هـ/1993م)، ص5-11. وقد اخترنا حصره لتلك الأدوات الواردة في القرآن الكريم، وطريقة تصنيفه وترتيبه لها، وهناك خلاف على غيرها بالحروف: (إذاً، إلى، كما، كأن)، انظر: أحمد خضير عباس، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ص78-79.

حرف اللام: وهي اللام التي تدخل على الفعل المضارع، فتنصبه ويكون ما قبلها علة لما بعدها، ولا تكون إلا بعد كلام تام²² تعني لأجل ذلك، قال تعالى: ﴿ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا ﴾ [البقرة: 188]، (لتأكلوا) دخلت لام التعليل هنا على الفعل المضارع، أي من أجل أن تأكلوا. قال ابن عاشور: "لا تدفعوا أموالكم للحكام لتأكلوا بها فريقاً من أموال الناس بالإثم؛ فالإدلاء بها هو دفعها لإرشاء الحكام ليقضوا للدفاع بمال غيره، فهي تحريم للرشوة وللقضاء بغير الحق، ولأكل المقضي له مالاً بالباطل بسبب القضاء بالباطل"²³. جاء التعليل هنا في معرض الكلام عن رشوة الحاكم، أي معاملات الناس المالية، وكذلك السياسية، وإن الإفصاح عن العلة في ذلك؛ يبين مدى الظلم الواقع نتيجة هذه الرشوة، وفيه تحذير للراشي والمرتشي، مهما كانت منزلته، فبالتعليل ترتدع النفس؛ لأن الله مطلع على أفعال العباد ونياتهم.

حرف كي:²⁴ قد يكون الحرف (كي) حرف جر، يفيد التعليل، و(كي) هنا مصدرية نصبت بنفسها الأفعال، ولا يجوز - عند معظم النحاة - أن تكون (كي) حرف جر مع وجود لام التعليل؛ لأنها ستكون للتعليل؛ وحرف التعليل عندهم لا يدخل على حرف تعليل، كما أن حرف الجر لا يدخل على مثله، ولعل الأرجح والأنسب أن تكون (كي) مفيدة للتعليل على كل حال، إذ أنها أينما كانت، كان ما بعدها علة لما قبلها سواء دخلت عليها اللام أم لم تدخل، أو ذكرت بعدها (أن) أو لم تذكر، ولا فرق بين (كي) الناصبة و(كي) الجارة في المعنى: قال تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾

²² انظر: محمد حسن الشريف، معجم في حروف المعاني في القرآن الكريم، (بيروت: مؤسسة الرسالة، دط، 1417هـ/1996م)، ص815.

²³ محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ، د.ط، 1420هـ/2000م)، ص187.

²⁴ "بعض العرب يجعل كي بمنزلة حتى، وذلك أنهم يقولون: كيمه في الاستفهام، فيعملونها في الأسماء كما قالوا حتى مه، وحتى متى، ولّمه". عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، (مصر: مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ط3، 1412هـ/1992م)، ج3، ص6.

[الحشر: 7]²⁵، "لا" نافية زائدة هنا. والمعنى: كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يُعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به²⁶. أي أن تشريع الصدقات لمستحقيها هو من أجل أن لا يُقتصر تداول المال بين شريحة واحدة في المجتمع وهي شريحة الأغنياء أو الحكام. وهنا تعليل أمر يتعلق بالعبادة المالية.

حرف الباء: وتسمى الباء السببية أو باء التعليل، وهي باء مفردة غير زائدة²⁷، وقد ذكر النحويون للباء أربعة وعشرين معنى من بينها التعليل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا أَنتُمْ ظَالِمَةٌ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ﴾ [البقرة: 54]، فالباء هنا داخلة على السبب؛ إذ أنّ ظلمهم أنفسهم مسبب من اتخاذهم العجل، أي: ظلمتم أنفسكم بسبب اتخاذهم العجل²⁸. والتعليل هنا يتعلق بالتعبد لغير الله، ويؤدي لظلم النفس.

حرف الفاء: الفاء المفردة لها في الكلام ثلاثة مواضع، ومنها فاء التعليل؛ التي تفيد السببية في أغلب مواضعها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 1-2]، هنا لا يصح عطف جملة (صل لربك) على جملة (إنا اعطيناك)، إذ لا يصح عطف الخبر على الإنشاء ولا الإنشاء على الخبر. فلم تُقد العطف وأفادت السببية، إذ أن إعطاء الله ﷻ الكوثر للرسول الكريم ﷺ سبباً للصلاة والنحر أو للأمر بهما²⁹.

²⁵ انظر: أحمد خضير، التعليل في اللغة العربية، ص 69-70.

²⁶ انظر: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ)، ج4، ص502.

²⁷ انظر: أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني، تحقيق: أحمد محمد الخراط، (دمشق: دار القلم، ط2، 1405هـ/1985م)، ص 220-222.

²⁸ انظر: أحمد خضير، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ص 38-39.

²⁹ انظر: المرجع نفسه، ص 46-49.

ومما سبق فإن التعليل يؤدي غايته بأي أداة، وبما يناسب الموضوع، لإبراز العلة والإفادة منها؛ فلو لم يعلل الله ﷻ دفع المال للحكام؛ لما تُبَيَّنَت الرشوة، وتعليل تشريع الصدقات أفاد في نبد الطبقة في المجتمع، والقضاء على الفقر، وكذلك قد علل لهم سيدنا موسى ﷺ ظلمهم؛ ليرتدعوا عن الشرك، كما علل إعطاء الكوثر للرسول ﷺ لصلاته ونحوه. وكل ذلك يفيد المسلم؛ فيعي تلك العلل ويتفكر فيها ويلتزم.

حرف من: هي من حروف الجر المحضة عند النحويين، وعدد العلماء لها معاني كثيرة منها التعليل؛ وهي التي يحسن مكانها لفظة سبب، أو هي من السببية، أو يقولون فيها المعللة³⁰. ومثالها في التعليل في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة:19] قال الزمخشري: "من الصواعق متعلق بيجعلون أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، كقولك: سقاه من الغيمة"³¹. كما فسر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30]، صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه³². يظهر هنا تعليل بالسبب؛ إذ أن (من) تدخل على سبب، فالصواعق سابقة للجعل وهي سبب.

لعل: هو حرف له قسمان: الأول أن يكون حرف جر، والثاني أن يكون من أخوات إن، فينصب الاسم، ويرفع الخبر، ومذهب أكثر النحويين أنه حرف بسيط وأن لامه الأولى أصلية، وقيل: هو حرف مركب، ولامه الأولى لام الابتداء، وقيل بل هي زائدة مجرد التوكيد³³ منها: التعليل نحو: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:52]، أي

³⁰ انظر: هادي عطية مطر الهلالي، الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، (بيروت: عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، ط1، 1406هـ/1986م)، ص 497-507.

³¹ الزمخشري، الكشاف، ج1، ص55.

³² المرجع نفسه، ج1، ص677.

³³ واللام لها عدة معانٍ منها: الترجي، وهو الأكثر والأشهر، والإشفاق، والاستفهام، والشك، والتعليل. انظر: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المالكي، الجني الداني في حروف المعاني،

لتشكروا. ومذهب سيبويه هنا للترجي³⁴. وقد بين أحمد خضير أن مذهب سيبويه هذا يؤدي بنا إلى القول أن التعليل بلعل يصحبه معنى الترجي. فإن كان ذلك في كلام الله ﷻ فالترجي ليس منه تعالى بل من العباد أو المخاطبين³⁵.

حرف في: هو حرف جر له تسعة معانٍ³⁶، منها التعليل الذي اختلف النحويون حوله ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:14]، أي: بسبب إفاضتكم، وواضح هنا أنه لا فرق بين التعليل والسببية، وأنه أراد بالتعليل السببية³⁷. فعلة العذاب الذي كان سيمسهم هو خوضهم في عرض السيدة عائشة -رضي الله عنها-؛ أي لمسكم بسبب ما أفضتكم، فحرف الفاء دخل على ما هو علةٌ وسببٌ لما قبله ﴿لَمَسَّكُمْ﴾.

حرف عن: لفظٌ مشتركٌ: اسماً وحرفاً، وتأتي على ثلاثة أوجه: أن تكون حرفاً جارياً، أو حرفاً مصدرياً، أو تكون اسماً بمعنى جانب، ولها عشرة معانٍ؛ منها التعليل³⁸، ومثاله قوله

تحقيق: فخر الدين قباوه، ومحمد نديم فاضل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1992م)، ص579-580.

³⁴ انظر: المرجع نفسه، ص580.

³⁵ أحمد خضير، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ص93.

³⁶ ومن معانيه: الظرفية وهي الأصل فيه، والمصاحبة، والتعليل، والمقايسة، وأن تكون بمعنى على، وأن تكون بمعنى الباء، وأن تكون بمعنى إلى، وأن تكون بمعنى من، وأن تكون زائدة. كما أن مذهب سيبويه، والمحققين من أهل البصرة أن (في) لا تكون إلا للظرفية حقيقةً أو مجازاً وما أوهم خلاف ذلك رُدُّ بالتأويل إليه. انظر: المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، ص250-253.

³⁷ انظر: محمود أحمد الصغير، الأدوات النحوية في كتب التفسير، (دمشق: وبيروت: دار الفكر، ط1، 1423هـ/2001م)، ص497.

³⁸ انظر: عبد الله بن يوسف جمال الدين ابن هشام، معني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، (دمشق: دار الفكر، ط6، 1985م)، ص196. ومن معاني (عن): المجاوزة، والبدل، والاستعلاء، ومرادفةٌ، وظرفيةٌ، ومرادفة من، ومرادفة الباء، والاستعانة، وأن تكون زائدةً للتعويض من أخرى محذوفةً. المرجع نفسه، ص197-198.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة:114]، يقول السيوطي: "أي لأجل موعدة"³⁹. فالتعليل ب(عن) هنا تعليلٌ بالسبب، فسبب استغفار إبراهيم هو وعدٌ سابقٌ وعده لأبيه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: 4] وقد أورد أحمد خضير أيضاً: أن التعليل ب(عن) عامةٌ قليل الورد قياساً على باقي الحروف الجارة الأخرى، ذلك أن النحاة لم يذكروا (عن) ضمن حروف السبب التي تقوم مقام اللام في دخولها على المفعول لأجله عند فقده شرطاً من شروطه⁴⁰.

حرف حتى: هو حرفٌ يأتي لأحد ثلاثة معانٍ: انتهاء الغاية وهو الغالب، والتعليل، وبمعنى إلا في الاستثناء وهذا أقلها وقلٌّ من يذكره، و(حتى) الداخلة على المضارع المنصوب لها عدة معانٍ منها أنها بمعنى (كي)⁴¹.

ومثال (حتى) الدالة على التعليل؛ قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:193] يقول الإمام ابن عاشور: "إذا انتهت الفتنة فتلك غاية القتال، أي إن خاسوا بالعهد وخفروا الذمة في المدة التي بينكم على ترك القتال فقد أصبحتم في حلٍ من عهدهم فلکم أن تقاتلوهم حتى لا تكون فتنة أخرى من بعد يفتنوكم بها، وحتى يدخلوا في الإسلام فهذا كله معلقٌ بالشرط المتقدم في قوله تعالى: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة:191]، فإعادة فعل ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ لتبني عليه الغاية بقوله: ﴿حَتَّىٰ﴾

³⁹ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1395هـ/1974م)، ج1، ص240.

⁴⁰ انظر: أحمد خضير، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ص86.

⁴¹ لأن أن تفعّل بمنزلة اسمٍ واحدٍ كما أن الذي وصلته بمنزلة اسمٍ واحدٍ؛ فإذا قلت: هو الذي فعل فكأنك قلت: هو الفاعل، أفلا ترى أنّ (أنّ) تفعّل بمنزلة الفعل، فلما أضمرت (أنّ) كنت قد وضعت هذا الحرف موضعه لأنه لا يعمل إلا في الأسماء، ولا يضاف إلا إليها، و(أن) و(تفعل) بمنزلة الفعل. انظر: سيوييه، الكتاب، ج3، ص5، 6، 16.

لَا تَكُونُ فِتْنَةً﴿﴾، وبتلك الغاية حصلت المغايرة بينه وبين ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:190] وهي التي باعتبارها ساغ عطفه على مثله. ف ﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونُ﴾ إما أن يُجعل للغاية مرادفة (إلى)، وإما أن يُجعل بمعنى (كي) التعليلية وهما متلازمان؛ لأن القتال لما عُيِّيَ بذلك تعيَّن أن الغاية هي المقصد، ومتى كانت الغاية غير حِسْبَةٍ نشأ عن ﴿حَتَّى﴾ معنى التعليل، فإن العلة غايةً اعتباريةً كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة:217]. وأياً ما كان فالمضارع منصوب بعد ﴿حَتَّى﴾ بأن (مضمرة) للدلالة على ترتب الغاية⁴².

وقد استنتج القرني: أن (حتى) تكون للتعليل وتكون للغاية في الآخر، وتحتل المعنيين في ثالث؛ فالعلة قد تلازم الغاية، والعكس⁴³. من ذلك يظهر التعليل في عمل (حتى) على كل الأحوال، وإن تضمن ذلك معنى الغاية؛ فالتعليل له في النهاية غاية. حرف على: هي حرفٌ وظرفٌ وقد اختلف النحويون في طبيعتها وسببها⁴⁴، ومن معانيها التعليل كاللام، أي أَنَّ (على) تكون بمعنى لام الجر، في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكْبُرُوا لِلَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: 185]، والتقدير لهديته إياكم⁴⁵. فقد جاءت (على) للتعليل حيث دخلت على ما هو سببٌ في وجود متعلقها. فالهداية سبب التكبير، فذكر شبه الجملة ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ إنما كان ليعلل بها وقوع التكبير. وهو تعليل بالسبب؛ إذ أن ما دخلت عليه (على) سابق لما قبلها في الذهن والخارج. أي: لهديته إياكم،

⁴² ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص204.

⁴³ انظر: سعيد القرني، التعليل في القرآن الكريم، ص581.

⁴⁴ فمنهم من اعتبرها حرفاً وظرفاً لأن حرف الجر يسبقها، ومنهم من اعتبرها حرفاً واسماً وفعلاً كالبرد والفارسي والرومي وغيرهم. وعندهم أنها بمعنى الاستعلاء، والمصاحبة ك(مع)، والمجاورة ك(عن)، والظرفية ك(في)، وبمعنى (من)، وبمعنى (عند)، وموافقتها إلى الباء، وتكون زائدة، وبمعنى الشرط، والتعليل كاللام. انظر: هادي الهلالي، الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، ص532-549.

⁴⁵ انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج2، ص238.

والهداية واقعة قبل التكبير وهي سبب ايقاعه. وإنَّ التعليل ب (على) يحمل معنى الاستعلاء، أي يكون التكبير على الهداية كما تقول: كَبَّرَ عَلَى النَصْرِ، جعل النصر شيئاً يَكْبَرُ عَلَيْهِ كما يكون التكبير على الذبيحة وغيرها⁴⁶.

حرف الكاف: يجوز أن يكون حرفاً وإسماً عند كثيرٍ من النحويين، وكاف الجر إما زائدة، وإما غير زائدة ولها معنيان: التشبيه والتعليل⁴⁷، "فالتعليل معنى من المعاني التي ترد عليها الكاف المفردة، وقيد بعضهم جواز ذلك بأن تكون الكاف مكفوفةً ب (ما) وألحق جوازه في المجردة من (ما)، والمقرونة ب (ما) الزائدة، و(ما) المصدرية، وقد أتت شواهد القرآن دالةً على جواز كونها للتعليل مقرونةً ب (ما)، أو مجردةً منها في أحد وجوه الإعراب، وغالباً ما تكون متلوّةً باسم الإشارة في حال تجردها إلا في ﴿وَيَكَاَنَّهُ﴾ [القصص: 82]"⁴⁸.

ومثال التعليل قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ﴾ [البقره: 151-152]، أي لما فعلت هذا فادكروني. أي بيان لعله إرسال الرسل؛ فإن قيام الرسول ﷺ بوظيفته التعليمية المتمثلة بتلاوة آيات القرآن الكريم على الصحابة، والتزكية لنفوس الصحابة في ضوء تلك الآيات وتعاليمها؛ كل ذلك حتى تتحقق العلة من ذلك وهو ذكر الله تعالى بكل أصناف الذكر؛ في الجنان واللسان والجوارح.⁴⁹

⁴⁶ انظر: أحمد خضير، أسلوب التعليل في اللغة العربية، ص 83.

⁴⁷ وتأتي أيضاً بمعنى (على)، أو للمبادرة نحو: صلِّ كما يدخل الوقت، أو للتوكيد نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فهنا تكون الكاف للتوكيد وهي زائدة. هادي الهلالي، الحروف العاملة، ص 415-418.

⁴⁸ سعيد القرني، التعليل في القرآن الكريم، ص 525.

⁴⁹ المرادي، الجني الداني، ص 78-86.

حرف **إِنَّ**: لها ثلاثة معانٍ⁵⁰ في القرآن الكريم، ويجوز فتح همزة (إِنَّ) وكسرها في مقام التعليل؛ الفتح على تقدير لام العلة، والكسر على أَنَّ التعليل بجملته (إِنَّ ومعمولَيْها)، والكسر أبلغ في التعليل⁵¹. وأصل تلك المعاني وأكثرها استخداماً في القرآن الكريم هو التأكيد؛ لأن المفسرين عدُّوا التعليل قسماً من التأكيد⁵²، ومثاله "كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1]، يلح أنه أتى مع التأكيد في تقدير سؤال السائل لأنها تقدمها من الكلام ما يلوح نفسه للنفس. فالله تعالى أمرهم بالتقوى، ثم علَّل وجوب التقوى مجيباً على السؤال المقدر بذكر هول الساعة وهذا الوصف بأنها مهول، فيقرر عليه الوجوب"⁵³.

أسلوب التعليل القرآني وبعض آثاره التعليمية

فيما سبق تمَّ التعرف على معنى وأهمية أسلوب التعليل في القرآن الكريم، كما تبيَّنت الغاية من إدراجه بكثرة في ثنايا القرآن الكريم، وموضوعاته وبطرائق مختلفة، وفي هذا المبحث استنتاجُ لآثار هذا الأسلوب على العالم والمتعلم في مناحي حياتهم التعليمية والسلوكية، ولن يتحقق ذلك إلا بوجود لوازم للتأثر من العالم والمتعلم، فيما يأتي بيانها.

بعض لوازم التأثر بأسلوب التعليل القرآني

⁵⁰ هي: التأكيد، والتعليل، ومعنى نعم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاجِرَانِ﴾ [طه:63]. انظر: هادي الهلالي،

الحروف العاملة، ص31.

⁵¹ انظر: سعيد القرني، التعليل في القرآن الكريم، ص545.

⁵² انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص201-206.

⁵³ هادي الهلالي، الحروف العاملة، ص31-35.

حتى يؤدي أسلوب التعليل القرآني ثماره يانعة على العالم والمتعلم فيلزم ذلك أموراً لا بدّ منها حتى يحصل التفاعل مع آي الذكر الحكيم وما تضمنه من أساليب، وقبل بيان بعضها فلا بد من توضيح معاني المصطلحات كالآتي.

معنى لوازم لغة: جمع لازم وأصلها من الفعل لزم، يلزم، ولزم الشيء يلزمه كرمماً ولزوماً ولازمه ملازمةً ولزاماً، والفاعل لازم، والمفعول به ملزوم، ومصدر لازم اللزام وهو الملازمة للشيء، والدوام عليه، وهو من اللزوم لا يفارق ما هو فيه⁵⁴، يعني ذلك أن معنى اللوازم هنا الأمور الملازمة للشيء دائماً فلا تفارقه.

وأما معنى لوازم في الاصطلاح: فقد عرّف الإمام الجرجاني اللازم بأنه: ما يمتنع انفكاكه عن الشيء، وقال أيضاً أن اللازم في الاستعمال هو بمعنى الواجب⁵⁵. يتبين مما سبق أن كلمة لوازم يُعنى بها أمورٌ يجب توفرها دائماً في الشيء حتى يتحقق المطلوب منه. أما معنى كلمة أثر في اللغة: فيُقصد به بقية الشيء، والجمع آثار وأثر، والأثر ما بقي من رسم الشيء، والتأثير إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء ترك فيه أثراً، والآثار الأعلام⁵⁶.

وأما معنى كلمة أثر في الاصطلاح: يقول الإمام الجرجاني: إن لكلمة أثر ثلاثة معانٍ؛ النتيجة وهو الحاصل من الشيء، أو العلامة، أو قد يأتي بمعنى الجزء⁵⁷.

بعد بيان معاني المصطلحات السابقة؛ يمكن القول أن معنى لوازم التأثير بأسلوب التعليل القرآني: هو أن هناك بقيةً أو جزءاً مما تضمنه أسلوب التعليل ستظهر علاماتها ونتيجتها على العالم والمتعلم، وبذلك يكون المرء قد تفاعل معها لتأخذ دورها في التفكير والعمل،

⁵⁴ انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص541 و542.

⁵⁵ انظر: الجرجاني، التعريفات، ص190.

⁵⁶ انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص3.

⁵⁷ انظر: الجرجاني، التعريفات، ج1، ص9.

كما سيظهر ذلك فيما سيأتي بإذن الله ﷻ، وهذا توضيحٌ لبعضٍ من لوازم التأثير بالإعجاز القرآني وأساليبه.

أولاً: الإخلاص

الإخلاص في اللغة: فأصله من الفعل خلص، يقال خلص الشيء يخلص خلوصاً وخلصاً إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسلم، وأخلص الله ﷻ دينه أمْحَضَهُ، وخلص إليه الشيء أي وصل، والتخليص التنجية من كل منشب⁵⁸.

ومعنى الإخلاص في الاصطلاح: كما أوضحه الإمام الغزالي: أن يكون غرض المرء هو محض التقرب إلى الله⁵⁹. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:6]، قال ابن عاشور في تفسيره للآية: "الإخلاص التصفية والاتقاء، أي غير مشاركين في عبادته معه غيره، والدين الطاعة، وحنيفاً لقبٌ للذي يؤمن بالله ﷻ وحده لا شريك له، وهو دين إبراهيم عليه السلام"⁶⁰.

والإخلاص له دورٌ كبير في التأثير بأسلوب التعليل القرآني؛ فالله يسوق للمعلم والمتعلم الأرزاق المعنوية والمادية، فالتعلم والتعليم هو للدين والدنيا معاً، وإن تعلم العلوم كلها بنوعها الديني والديني وعلى اختلاف درجاتها إما تسلك بصاحبها إلى الله تعالى، فيكون له مقامه عند الله ﷻ بحسب درجة وكيفية طرده لأبواب العلم، إذا قصد به وجه الله ﷻ، وإما ترديه تلك العلوم في غياهب الدنيا وملذاتها، أو تلهيه عن الطريق الصحيح في الأخذ والتلقي لأنواع العلوم، حتى يغدو علماً جافاً لا يؤثر في صاحبه فلا يقيم دنيا ولا دين، والمعول هنا هو إخلاص النية لله.

لذلك فإن ذلك المعنى يتأكد مما ورد عن الإمام الغزالي؛ بأن أرباب القلوب قد انكشف لهم ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن حقيقة أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم

⁵⁸ انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص26.

⁵⁹ انظر: محمد بن محمد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت)، ج4، ص365.

⁶⁰ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص480 و481.

والعبادة، وأن الناس كلهم هلكت إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكت إلا العاملون،
والعاملون كلهم هلكت إلا المخلصون، بل إنه يعتبر المخلصين هم على خطرٍ عظيم⁶¹،
ولأهمية الإخلاص وضرورة العناية في مراجعته من صاحبه دائماً يتحقق الغاية من العلم،
وتتحقق السعادة لصاحبها في الدارين.

فالإخلاص يدفع كلاً من العالم والمتعلم إلى الإقبال على كتاب الله ﷻ بكامل
العناية والرعاية بالفهم والتدبر، وتمثل أخلاقه وتطبيق أحكامه واتباع أساليبه وطرائقه في
العلم والتعليم، مما يظهر أثر ذلك جلياً في حياتهم المهنية والخاصة، بالأخذ بطريقة القرآن
الكريم أسلوباً ومنهجاً.

ثانياً: تدبر آي الذكر الحكيم: حتى يُكشف أسلوب التعليل لكل من العالم والمتعلم،
ومن ثم القيام بسر دلالاته وما يؤول إليه والإفادة منه والتأثر به، فإنه يلزمهما إدامة التدبر
في آي الذكر الحكيم، وقبل استنتاج دور ذلك التدبر للتأثر بأسلوب التعليل القرآني من
العالم والمتعلم، هذا بيانٌ لمفهوم التدبر.

معنى التدبر لغة: أصلها يرجع إلى الفعل الثلاثي دَبَرَ أي تبع، ودبره يدبره دبوراً: أي
تبعه من ورائه، ودبر كل شيء: عَقَبه ومؤخّره، والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه
عاقبته، والتدبير: التفكير فيه⁶². أي عقب الشيء أو ما يؤول إليه.

كما أن معنى التدبر في الاصطلاح كما عرّفه الإمام الجرجاني هو: "عبارة عن النظر في
عواقب الأمور، وهو قريب من التفكير، إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في الدليل
والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب"⁶³. يلاحظ أن المعنى الاصطلاحي لم يختلف عن المعنى
اللغوي السابق، وهذا أيضاً كما ورد في تعريف المفسرين له ابن عاشور حيث بين أن

⁶¹ انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص362.

⁶² انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص273.

⁶³ الجرجاني، التعريفات، ص54.

أصل تدبر القرآن من النظر في دُبر الأمر أي فيما لا يظهر للمتأمل ابتداءً، ثم هو لم يفرق بينه وبين التفكير حيث عرّف تدبر القرآن بأنه: التفكير والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وذلك بإعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له، فالمتدبر يتعقب ظواهر الألفاظ القليلة ليُعلم ما يُدير ظواهرها من المعاني الكثيرة المكونة، والتأويلات اللائقة⁶⁴. ويتّضح ذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82]، أنهم لو تدبروا قول القرآن لعلموا أنه الحق بدلالة إعجازه وبصحة أغراضه، فاستمرار عنادهم لأنهم لم يدبروا القول، وهذا أحد العلل التي عَمَرَت بهم في الكفر⁶⁵. إن تدبر القرآن الكريم يؤثر في العالم والمتعلم بتأمل آيات القرآن الكريم من أجل الاتعاظ وأخذ العبرة، والتفكير، واستنباط معانيه التي خفيت؛ فهو إذاً يعمّ العلماء وغيرهم، لكن العلماء فقط لهم حق الاستنباط⁶⁶.

لوازم تحقق التدبر: ذكر العلماء كثيراً من الأمور التي تلزم المسلم حتى يتحقق عنده التدبر؛ أهمها:

1. أن يقوم المتدبر بحضور وحصر فكره مع الخشوع والتأثر؛ ذلك باستشعاره أن القرآن يخاطبه.
2. ملاحظة البعد الواقعي؛ بحيث يجعل من الآية منطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.
3. ومن أهم تلك الأمور النظرة التفصيلية في سياق الآية بعد الوقوف أمامها وقفَةً متأنيةً فاحصةً من حيث ترتيلها، وتركيبها، ومعناها، ونزولها، وغريبها، ودلالاتها؛ وذلك يتطلب

⁶⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص29، وج18، ص87.

⁶⁵ انظر: المرجع نفسه، ج18، ص88.

⁶⁶ الاستنباط: "استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة". الجرجاني، التعريفات، مادة (أ.س)، ص

الإمام بقدر من علوم اللغة وقواعدها وهذا له الأثر الكبير في الفهم وسرعة التدبر وسلامة النتائج به⁶⁷. ذلك أن القصد من أي كلام الإفهام والتأثير في السامع؛ فقد يكون الكلام مفهوماً ولكن لا يكون مؤثراً، والخطاب القرآني يقصد إلى التأثير في السامع حتى يلتزم ويطيع، فيلزم ذلك الربط بين التعليل والتدبر وما يتضمنه من بيان وبلاغة، لذلك فإن مهمة العالم تكون بتوظيف كل ذلك أثناء شرحه للتأثير في المتعلم، وإلا فقد يقتصر العالم على إفهام المتكلم دون التركيز على التأثير فيه، وبذلك يكون قد قام بالوظيفة الأولية للكلام ولم يرتق إلى مرتبة أعلى، بينما القرآن في خطابه قد بلغ الغاية في الإفهام والتأثير.

كما قد حصر الدكتور خالد السبت أوصافاً تطلب كشرط يتوقف عليه حصول التدبر بحسب النظر الكلي في ثلاثة أمور مجموعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37]، حيث صرحت الآية بالشرطين الأولين وهما؛ وجود المحل القابل (القلب الحسي)، والعمل الذي يصدر من المكلف (القراءة أو الاستماع حضور القلب)، وأما الثالث وهو وجود قدرٍ من الفهم للكلام المقروء أو المسموع، فهي دالةٌ عليه لزوماً؛ فإلقاء السمع لا بد أن يكون معه الكلام مفهوماً لدى السامع حتى يحصل المقصود قدرٌ من الفهم. ثم بين التفات الذي يحصل فيما سبق، لأن لكل أسباب معينة والتي يقوى باستجماعها أو يضعف بتخلفها وقد ينعدم⁶⁸.

وعليه فإن التدبر هو مهمة العالم والمتعلم، بعد التوصل إلى معرفة المراد من المعنى ضمن أسلوب التعليل، فإن ذلك المعنى وُجد من أجل أن يرجع عملياً في السلوك، فيتأثر العالم

⁶⁷ انظر: علي بن نايف الشحود، هداية القرآن للتي هي أقوم، (ماليزيا: دار المعمور، بجانج، ط2، 1431هـ/2010م)، ص291.

⁶⁸ انظر: خالد السبت، شروط تدبر القرآن الكريم وموانعه، (السعودية: مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، 1432هـ)، مجلد11، ص15 و16.

والمتعلم بالمراد من الآية بعد تدبرها، حتى يكون أسلوب التعليل طريقة لهما في تلقي العلم وفي إلقاءه.

ثالثاً: نبذ التعليم التقليدي: على العالم والمتعلم أن يكونا على وعيٍ وبصيرةٍ بأن سبب هزيمة الأمة هو الضعف في بنائها التعليمي الفكري، والذي جاء نتاج ما قام به أعداء الأمة بعد أن أحكموا خططهم للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي، لإخراج المسلم من شخصيته الإيمانية إلى الشخصية المقلدة للغرب، ذلك الكيد الكبير الذي كان له أثره في كل مقومات الأمة، وقد عمد الأعداء ابتداءً إلى استهداف الجهاز التعليمي⁶⁹ بكل أركانه ومقوماته وأهدافه وتطبيقاته ذلك من خلال السياسة التعليمية⁷⁰ التي انتهجها المستعمر وسار عليها وعممها؛ تلك السياسة التعليمية القائمة على جعل الولاء والطاعة له ولقومه، الذي هو من أولويات أهداف تلك السياسة؛ حتى لضمان انسلاخ المسلم عن ولائه لدينه أو لقومه، وانصهاره تدريجياً في ثقافة الغرب ومن ثم يتقمص كل مفاهيمهم وسلوكهم⁷¹. ولا سبيل لنهوض أمة الإسلام إلا بإصلاح الأركان التي يقوم عليها ذلك البناء؛ ومنها، العالم، والمتعلم، كل ذلك ثم لأن الشخصية المسلمة لديها قابلية الانسلاخ عن مبادئها وقيمها، الأمر الذي يسهل على أعدائنا أن يطبقوا خططهم. وقبل استنتاج آثار ذلك على العالم والمتعلم، فيما يأتي بياناً لمفهوم التعليم التقليدي.

التقليد لغةً: من الفعل قلد، وقَلد الماء في الحوض واللبن في السقاء يقلده قَلداً أي جمعه فيه، والقَلد أيضاً لِيُ الشئِ على الشئِ، وسواؤُ مقلودٌ وقَلدُ أي ملوئٌ، وقَلد فلانٌ فلاناً

⁶⁹ انظر: عبد الرحمن حسن حبتكة الميداني، غزو في الصميم، (بيروت: ودمشق: دار القلم، ط1، 1402هـ/1982م)، ص7-10.

⁷⁰ معنى السياسة التعليمية: هي المواد الدستورية العامة للتعليم والتي تشمل أسس وأهداف ومقاصد العملية التعليمية، والخطط المتوقعة لإنفاذ ذلك، والتي تختلف من قوم إلى آخر بحسب العقيدة. انظر: المرجع نفسه، ص10.

⁷¹ انظر: المرجع نفسه، ص7 و10.

أي عمل مثل عمله دون أدنى تفكير، وقلّدوا الخيل أي جعلوا ذلك لازماً لها في أعناقها لزوم القلائد للأعناق، وقلّده الأمر أي ألزمه إياه، وتقلّد الأمر أي احتمله، والمقلّد من الخيل أي السابق يُقلّد شيئاً يُعرف أنه قد سبق. من كل ذلك يظهر أن التقليد في اللغة يعني جمع شيءٍ على شيءٍ ليحتمله وليكون لازماً له⁷².

ومعنى التقليد في الاصطلاح كما عرفه الإمام الجرجاني هو: "عبارةً عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل"⁷³. ويربط المعنى الاصطلاحي بالمعنى اللغوي يتبيّن أن المقلد يلزم نفسه بما قبله، وكأنه يجمع كل ما قبله من علم دون استثناء، ويُجمع نفسه ويحملها عليه بشدّة كأنه يلوي نفسه على قبول علم من قبله لئلا، كما يلوي الشيء على الشيء من المعنى اللغوي، وبذلك يصبح قابلاً لقول أو علم غيره دون أن يكون عنده رأيٌ ذاتيٌّ أو حجةٌ أو دليلٌ على ما يتقلّد من الغير.

فالمقصود بالتعليم التقليدي كما أورده المفكر عبد الرحمن الميداني: هو أن يُكتفى بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي وعلومهما، والسيرّة النبوية وبعض الأعلام، والفقهاء الإسلامي وأصوله، وعلم الموارث، وعلم العقيدة، واللغة العربية وقواعدها، ومن العلوم العقلية الاقتصار على علمي المنطق والفلسفة⁷⁴ دون ربطها بالواقع بهدف مواجهة المشاكل والعمل على حلّها، وهذا يعني عدم الاستفادة من العلوم الدنيوية الأخرى التي يحتاجها المرء في حياته بجانب علوم الدين من أجل إعمار الحياة، كعلوم الطب، والهندسة، والزراعة، والصناعة، وغيرها، وإن تعليمها وتلقّيها إلى جانب علوم الدين يكسبها قاعدةً ورؤيةً إسلاميةً للانطلاق بنظرةٍ إسلاميةٍ واعيةٍ وحضاريةٍ، كما أن ذلك لا يفصل الدين عن الدنيا، بل إن الدين مطلوبٌ لتصحيح مسار تلك العلوم الدنيوية.

⁷² انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص365 و366 و367.

⁷³ الجرجاني، التعريفات، ص64.

⁷⁴ انظر: حنكّه الميداني، غزوّ في الصميم، ص239 و240.

كما أن ذاك التعليم فيه تغييب للمؤلفات الفكرية الإسلامية الحديثة، وذلك له أثره السلبي على العالم والمتعلم؛ فبفقد التواكب مع الفكر الإسلامي الحديث يبقى على التقليد، ويضعف روح التعليق، والتفكير والتجديد والمقارنة والنقد، لكن المطلوب هو فتح الباب أمام كل الاجتهادات قديمها وحديثها للدراسة وإدراجها في الخطة التعليمية، ذلك من أجل دراستها وتحليلها، وتعليلها، والحكم عليها، ونبذ ذلك التعليم التقليدي يفتح الباب للتأثر بأسلوب التعليق القرآني وتفعيله في كل علمٍ سواء كان قديماً أو حديثاً.

بعض آثار أسلوب التعليق القرآني التعليمية

أسلوب التعليق هو إحدى الأساليب البيانية⁷⁵ التي تميّز بها القرآن الكريم، وبطريقة تميّز بالانساق والترتيب، والنظام والروعة، وهو يأتي بتلك الطريقة حتى يُؤتي أكله في سياق النظم القرآني الذي يقوم عليه الإعجاز القرآني، ويجدر الإشارة هنا على أن أسلوب التعليق لم يأت منفرداً عبر أي الذكر الحكيم؛ بل جاء ضمن تلك الأساليب البيانية ولم تنفصل عنه، لذلك فعند استنتاج أثر هذا الأسلوب الرائع، فلا بد من الحديث عن ذلك ضمن تلك الأساليب التي لا ينفك عنها.

إن العالم والمتعلم يتأثران بذلك الأسلوب في جميع مناحي حياتهم الخاصة والعامة، الفكرية والسلوكية، وخاصة التعليمية التي هي مجال تخصصهم وعنايتهم، وتنبور لدى العالم والمتعلم قناعات فكرية تكون لهم خير معاونٍ في حياتهم تدفعهم فينطلقون منها للنهل من المنهج القرآني حول العقل استمداداً واستهداءً. ذلك الأسلوب له أثره الواضح في الإعجاز القرآني ومن ثم في النفس الإنسانية، وله بالغ الأثر على العالم والمتعلم، ويمكن إجمال بعض تلك الآثار الواردة ضمن الأساليب البيانية فيما يأتي.

⁷⁵ الأسلوب البياني هو: إحدى الأساليب البلاغية الناشئة عن مجموعة من الصور البلاغية، والمحسّنات البديعية في الكلام. والتي بدورها تندرج في العربية تحت علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع. انظر: مجدي وهبه، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص25.

1. الإبداع والتحفيز على التفكير، وسعة الأفق؛ وذلك من خلال التوسع في سُبُل التعبير عن الأفكار؛ فأسلوب التعليل ضمن أسلوب البيان المجازي⁷⁶ مثلاً مرتبطاً بالقصص والمفسرين؛ فالمفسر ينقل المعنى ويوسعه، ويسرح خياله عند الحديث عن البطولات والتضحيات كنوعٍ من استخلاص العبر والمواعظ وكذلك أسلوب الاستعارة والتشبيه⁷⁷ فهذا أسلوب المجاز المتضمن لأسلوب التعليل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:179]، فهنا إيجاز قصر، فيه إبانة العدل لذكره القصاص، وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، وفيه الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به. وتظهر أهمية هذا الأسلوب لأنه أكثر في الفائدة وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، لذلك فضله الإمام الرماني بدرجة عالية على سائر الكلام وأنواع البيان؛ وأيضاً لما فيه من تهذيب للكلام، وتصفية الألفاظ من الكدر، وتخليصها من الدرر، وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة، وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز⁷⁸. وهذا يعني زخم المعاني المستنبطة في هذا الأسلوب، يعبر فيهما عما يجول في داخل النفس من موضوعاتٍ، تقرب البعيد وتوضح المبهم⁷⁹.

2. الإبانة والبيان حتى يجمع أسباب الحسن في نظم الكلمات، فيحسن السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس، فالاستعارة مثلاً كما يرى الجاحظ تقرب المعنى للسامع،

⁷⁶ الإيجاز: هو تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى. ويكون إما بإسقاط كلمةٍ للاجترأ عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ويسمى الحذف، أو يكون بالقصر، حيث بُنية الكلام تقوم على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف، وهذا كثير في القرآن الكريم. انظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص 76-80.

⁷⁷ التشبيه: "هو عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى ما، بأداة ملفوظة أو ملحوظة، كالكاف ونحوها، لغرض مقصود"، عبد الفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، (مصر: دار الفكر العربي، ط2، 1418هـ/1998م)، ص 97.

⁷⁸ انظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص 77-80.

⁷⁹ انظر: هدى عبد الحميد، "الأساليب البيانية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ"، مجلة كلية التربية الأساسية، (الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية، العدد72، 2011م)، ص 67 و68 و73.

وتسهّل عليه مهمة الفهم والاستيعاب، ذلك أن فيها صورة جميلة مؤثرة ترسم في نفس السامع ومخيّلته فتحدث التأثير والإثارة بما تبديه من إعجازٍ بياني يعتمد الذوق الذي هو مدرك الإعجاز⁸⁰، فهذا مثلاً لأسلوب التشبيه المتضمن لأسلوب التعليل في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكِ بَأْنَهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]، وقد قالوا ذلك في مقام: إنما الربا مثل البيع، لأن الكلام في الربا لا في البيع، ذهاباً منهم إلى جعل الربا في الحلّ أقوى وأعرف من البيع⁸¹. يلاحظ هنا أن الكفار قد علّلوا استباحتهم للربا عن طريق أسلوب التشبيه من باب تقوية حجّتهم، وقد جاء التعليل للربا الوارد ضمن صورة تشبيهية والتشبيه جيء به ليحقق غرضاً ما، والتعليل غرض.

فالمعلم يتأثر بذلك ويتسع أفقه؛ فيعلل الأفكار من خلال طرحها بصور تشبيهية، ويحفّز طلابه على التفكير والتعليل في رحاب تلك الصور المساعدة على استنباط العلة، حتى يبدع في شرحه وتفسيره ويكسبهم تلك الصفات أيضاً التي اكتسبها هو، فيتأثر المتعلم من معلمه، فالعالم والمتعلم يتغيران ويتأثران بتلك الأساليب.

ولشدة الظهور والبلاغة والقوة لذلك الأسلوب فإن العالم يتأثر بتلك الصور بكل جوانبها حتى يصبح حسن النظم للكلمات قوي اللسن، رفيع الذوق، وكل ذلك لا بد من أن يحدث تأثيراً في المتعلمين من حوله وتغييراً في نظمهم للكلمات وإبانيتها كما أثرت فيه وغيرته.

3. إعمال الفكر لاستحضار العلة وترسخها في الذهن في الجانب العقدي؛ فقد عرض القرآن الكريم مواضيع كثيرة بأسلوب التعليل كمجال العقيدة ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]،

⁸⁰ انظر: المرجع السابق، ص 70 و72 و73.

⁸¹ عبد الفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، ص 97.

تناول الإمام الزمخشري تلك الآية في تفسيره بإسهابٍ وتفصيل؛ وهو يرى أن (لعل) هنا هي للترجي والإشفاق، أي ترجي العباد، ويرى أن المطلوب تحققه هو التقوى التي هي قسارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: للاستيلاء على أقصى غايات العبادة، وذلك سيكون أبعث على العبادة، وأشد إلزاماً لها، وأثبت لها في النفوس ونحوه⁸². فالعالم هنا في شرحه عن موضوع عقيدتي كالتقوى مثلاً سيتبع الأسلوب التعليلي لها حتى ترسخ في العقول وتؤمن بها القلوب، ويتعد عن الأسلوب التقليدي الجاف في التلقين فقط.

4. الحث على الإقبال على العبادة والتزام أحكام الشرع؛ ومثال ذلك ما جاء بأسلوب التعليل في مجال الأحكام الشرعية، والتي يُستنتج منها أثر الصلاة على من قيمها بخشوعها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45]، تناول الإمام الزمخشري في تفسيره لآية تعليان؛ ففي التعليل الأول أفاد باستنتاجه أن الصلاة الخاشعة هي الناهية عن المعاصي، وهذا من لطف الله، وأفاد من التعليل الثاني؛ بأن الله جَلَّالٌ سمى الصلاة بذكر الله جَلَّالٌ؛ ليستقلّ بالتعليل⁸³، أي أفاد عن حقيقة الصلاة وما تحويه فعلاً من أذكارٍ خالصةٍ لله، فطبيعتها أنها ذكرٌ لله جَلَّالٌ فقط وليس غيره؛ هنا التعليل بالجملة والتي تبدأ بحرف إن يسوق كل ما تتضمنه الصلاة من أقوالٍ وحركاتٍ وأفعالٍ إلى الاستقامة بعد استشعاره سوء وقوعه فيما يغضب الله. كما أن الصلاة قد شُرعت لتطهر وتجرد، وهذا الطهر لا يتسق مع دنس الفحشاء والمنكر⁸⁴. وأفاد التعليل هنا بذكره لصنوف العبادة في الصلاة من تكبيرٍ وتسييحٍ وقراءةٍ وغيرها؛ إذ أنّ العلة حملته للإسهاب في شرح

⁸² انظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص75.

⁸³ انظر: المرجع نفسه، ص820.

⁸⁴ انظر: سيد قطب ابراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن الكريم، (بيروت: والقاهرة: دار الشروق، ط17،

1385هـ)، ج5، ص2738.

جوانب العبادة في الصلاة، حتى يتبين أنّ جوانب العبادة تلك هي التي دفعت صاحبها لاستشعار عظمة الخالق فارتدع عن المعصية.

5. الترغيب في التحلي بالأخلاق الحسنة والابتعاد عن الأخلاق السيئة؛ ومن الآيات التي تشتمل على أسلوب التعليل في ذلك؛ قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:115]، أفاد المفسرون من التعليل في هذه الآية؛ أن التذكير بالصبر في خاتمة الأوامر والنواهي في السورة؛ هو دليل فضله وخصوصيته. ولما جاء في جملة التعليل بالمحسنين؛ فإن ذلك يعني أن الصبر مطلوبٌ من الجميع وفي كل مواقعهم، ويشمل كل معاني الاستقامة. وفي تفسير الإمام الألوسي أن الصبر هو على التكليف الشاقة التي أمر بها، وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، هي تعليلٌ للأمر بالصبر، أي يوفيه ثواب أعمالهم من غير بحس؛ وقد عبّر عن ذلك بنفي الإضاعة بياناً لكمال نزاهته تعالى. فهو لم يجرمهم أي شيء من ثوابهم، وفيه إيماءٌ إلى أن الصبر على ما ذكر هو من باب الإحسان⁸⁵. هو هنا يبيّن أن هذا هو أسلوب التعليل؛ فإذا علم العبد أن صبره هو الإحسان، وأن الله لن يبخس منه شيئاً؛ أثر ذلك فيه حتى يداوم عليه.

ما سبق نماذج قليلة من كثير في أسلوب التعليل في الموضوعات المختلفة، وهي فرصة للعالم والمتعلم للسير على طريقة القرآن الكريم في عرض تلك الموضوعات؛ وتلك الطريقة أيضاً يتخذها المتعلم في فهم عقيدته، فإن أسلوب التعليل له دورٌ وأثرٌ في إبراز المعاني بطريقة ملفتة للنظر في الآية، بحيث تضطرّ القارئ أو السامع لها إلى إعمال فكره لاستحضار العلة المرجوة، وترسخها في ذهنه؛ من أجل ذلك سيقت به كثيراً من الآيات. وبذلك يمكن استنتاج الجانب التطبيقي الذي حثت عليه الآيات، والذي يؤثر في القارئ والسامع فيغيّر سلوكه، خاصةً إن كان عالماً أو متعلماً.

⁸⁵ انظر: أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1426هـ/2005م)، ج6، ص353.

6. تدريب عقول المتعلمين على المحاكمة العقلية؛ انطلاقاً من أصالة التعليم الإسلامي القائم على النظر والملاحظة، ثم الاستنتاج، كما وجهنا الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36] فوظيفة العالم والمعلم لا تقف عند نقل التراث الثقافي فقط؛ بل لا بد من التفكير والتجديد الذي لا يتوقف؛ وعلى العالم أن يأخذ بعين الاعتبار علم المتعلم، ونضجه العقلي، واستعمال أسلوب المطارحة، والمناظرة، والمحاورة، حيث يهيء له فرص الجراءة، والثقة بالنفس. تلك الطريقة تهدف إلى حصول المتعلم على ملكة العلم حيث يصبح على درجة عالية من الفهم وليس فقط حفظه دون فهم وتعمق؛ لذا فالمعلم يدرك تلك الحقيقة، من خلال تعليل موضوعات مختلفة كالأخلاق، والأحكام الشرعية، وعلى المعلم التدرج في ذلك، وعليه أن يفتح باب النقاش أيضاً للطالب حتى يسأل عن الأسباب والمسببات والعلل؛ وبذا يتأثر المتعلم بأسلوب معلمه التعليلي.

ومن جهة أخرى فإنه مع تكرار استخدام المعلم لهذا الأسلوب؛ فإنه سيتدرب على إعمال العقل، وإقامة الحجة على صحة الرأي ووجهة النظر، ومثاله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:105]، أبان المعنى مباشرةً الشيخ الألوسي بقوله أن اللام للتعليل، ثم ذكر ما قيل من أنها بمعنى عن؛ أي لا تكن لأجلهم أو عنهم خصيماً، أي مخصصاً للبراءة⁸⁶.

أما المفكر سيد قطب فقد أسهب في وصف الجو السياسي الذي نزلت فيه الآية؛ ليربط ذلك بالحاجة إلى ذلك التشريع السامي؛ ويبيّن معنى ﴿لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي محامياً ومدافعاً ومجادلاً عنهم، ثم بيّن المستوى الذي تشير إليه الآيات وأنه لا يمكن أن يكون للبشر مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم،

⁸⁶ انظر: الألوسي، روح المعاني، ج3، ص134 و135.

أن يرتفعوا إليه إلا بوحىٍ من الله ﷻ هذا المستوى الذي يرسم خطأً في الأفق لم تصعد إليه البشرية إلا في ظل هذا المنهج الأخلاقي القرآني، ذلك أن الأمر بإنصاف يهودي جاء في وقتٍ كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين، ينشرون الأكاذيب، ويؤلبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويطلقون الإشاعات، ويظللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي، ومحاولين تفسيح المجتمع المسلم من الداخل، وفي نفس الوقت كانت رواسب الجاهلية ما تزال آثارها في النفوس، ووشائج القرني والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود؛ تمثل خطراً على تماسك الصف المسلم. ويظهر المفكر سيد قطب عجبه من علو المستوى في ذلك الخلق، ويصفه بالنظافة والعدالة والتسامح، وأي كلامٍ يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى، وكل كلامٍ، وكل تعليقٍ، وكل تعقيبٍ؛ يتهاوى دون هذه القمة السامقة التي لن يبلغها البشر إلا أن ينقادوا بمنهج الله ﷻ إلى ذلك الأفق العلوي الكريم الوضيء⁸⁷.

يتبين من ذلك المثال سعة الأفق الذي يمكن استنتاج المعاني الكثيرة فيه؛ حيث نقلنا المفكر سيد قطب إلى منهجاً أخلاقياً راقياً من العدل والتسامح مع غير المسلمين بعد تحليل آيةٍ طرح فيها ذلك الخلق بالأسلوب التعليلي زاخر المعاني، وسيصبح ذلك منهجاً وسلوكاً للمتعلم في نظرتِه لآياتٍ أخرى فتنمو قدرته على التفكير العلمي الإبداعي، الذي يتجاوز طرق التقليد والتلقي، وتحفزه إلى التجديد والابتكار، والمشاركة والتطبيق، والتفكير الناقد، بل بذلك أيضاً ستتدرب حواسه على الملاحظة كأساسٍ لتنمية كافة قدرات العقل، من تحليلٍ واستنتاجٍ، وإصدار أحكامٍ عند معالجة القضايا المختلفة، بدل بقاءه صامتاً ساكناً. مما يُنبئ كل ذلك بشبابٍ واعدٍ، يتمتع بطاقاتٍ وقدراتٍ لتطوير قدراتهم

⁸⁷ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج2، ص751 و752.

الذاتية، وصقل مواهبهم بالمناقشة والمشاركة، والمسائلة والحوار والتعليل. وكل ذلك يكسبه مهارات عامة في مناحي حياته.

الخاتمة: النتائج والتوصيات

يمكن تلخيص نتائج البحث بما يأتي:

1. وظيفة العالم والمعلم لا تقف عند نقل التراث الثقافي فقط؛ بل لا بد من التفكير والتجديد الذي لا يتوقف في كل مناحي حياته. وإذا ما حرص العالم والمتعلم على تطبيق تلك المنهجية في العملية التعليمية؛ فإنهم سيتجاوزون جانباً من التخلف والجمود، إلى الرقي والحركة والنهوض. ويحصل ذلك بإكساب المتعلم خبرات، وقيم، ومعتقدات، وعادات، وسلوك الجماعة حيث يعيش، قائمة على التعليل.

2. من خلال أسلوب التعليل يكسب المتعلم ملكة العلم ويصبح على درجة عالية من الفهم وليس فقط على الحفظ دون فهم وتعمق؛ لذا فالمعلم يدرك تلك الحقيقة فيدرب عقول المتعلمين على المحاكمة العقلية.

3. يتأثر المتعلم بأسلوب معلمه التعليلي، فمع تكرار استخدام المعلم لهذا الأسلوب؛ فإنه سيتدرب على إعمال العقل، وإقامة الحجة على صحة الرأي ووجهة النظر، وسيصبح ذلك منهجاً وسلوكاً للمتعلم؛ فتتمو قدرته على التفكير العلمي الإبداعي، الذي يتجاوز طرق التقليد والتلقي، وتحفزّه إلى التجديد والابتكار، والمشاركة والتطبيق، والتفكير الناقد.

4. يكسب العالم والمتعلم قدراتٍ لتطوير قدراتهم الذاتية، وصقل مواهبهم بالمناقشة والمشاركة، والمساءلة والحوار والتعليل. وكل ذلك يكسبه مهاراتٍ عامةٍ في كل مناحي حياته.

ونوصي بضرورة الدراسة التفصيلية لكل أدوات التعليل، والتفريق بينها، دراسةً فكريةً تؤثر في سلوك المسلم. ومقارنة أدوات التعليل المستخدمة في كل موضوع مع غيره في القرآن الكريم، ودراسة النتائج الإيجابية من التعليل في القرآن الكريم، بتصنيف المواضيع في ذلك وتحليل النتائج.